سيميـــــاء التلقّـــي والتـــأويل
قراءة في الأُسس والمَفاهيم

The Semiotics of Receiving and the interpretation
A Study of the foundations and concepts

عفاف مودع[1]
طالبة الدكتوراه جامعة الجزئر2
afaf.mouada@univ-alger2.dz
أ.د حميد علاوي
جامعة الجزائر2
samy_alla@hotmail.com

تاريخ الوصول 2020/05/18 القبول 2022/01/06 النشر على الخط 2022/09/15
Received 18/05/2021 Accepted 06/01/2022 Published online 15/09/2022

ملخّص:

تروم هذه الدراسة البحث في ماهية بعض المفاهيم المعرفيّة المؤسسة للنظرية السيميائية التأويلية من وجهة نظر روادها؛ باعتبارها نظريّة تبحث في الدّلالة وآفاقها لمآ اقترنت بمحفلي الإنتاج والتلقي، ونخص بالذّكر: **فيرديناند دي سوسير، شارلز سندرس بورس، شالز موريس، رولان بارت، هانز جورج غادامير، بول ريكور، وأمبرتو إيكو**؛ فكل علم من هؤلاء كونه يمثّل مدرسة فكريّة أصّلت لرؤية فلسفية من سماتها التفرّد في الطرح المعرفي نظّر لمصطلحات مفاهيم عُدّت مَفاتيح رئيسة لابد من امتلاك ناصيتها في التعامل الإجرائي/ التطبيقي مع النصوص الإبداعية على اختلاف شاكلة تحقّقها. لنخلص إلى نتيجتين محوريتين: عجز النظريات الفلسفية، المختزلة في منظومة مفاهمية بعينها، في فرادتها احتواء النصوص الإبداعية المتحررة من سلطة الزمان والمكان، ناهيك عن ضرورة الوعي بالخلفية الإبستمولوجية والإيديولوجية لهذه النظريات لمآ حملت في طيّاتها معالم نجاعتها على مستوى القراءة النقدية الواعية، ودوافع تجاوزها في الآن نفسه.

الكلمات المفتاحية: السيمياء، التأويل، القراءة، الرمز، التفسير، الفهم.

Abstract:

This research is based on the definition of some concepts in the field of semiology and interpretation, as a theory looking at the significance and its prospects when combined with the context of production and receiving from the vision of some researchers such us: Ferdinand de Saussure, Charles Sanders pierce, Charles w. Morris, Roland Barthes, Hans-Georg Gadamer, Paul Ricœur, and Umberto Eco, for the Purpose of understanding their philosophical vision, which was the basis of these concepts..

In the end, it was concluded with two central conclusions: the inability of philosophical theories reduced to a particularly important system in its uniqueness to contain creative texts free from the power of time and space, not to mention the need to be aware of the epistemological and ideological background of these theories, which has carried with them the parameters of their effectiveness at the level of conscious critical reading and motives that transcend them at the same time..

Keywords: The Semiotics, The Interpretation, The Reading, The Symbol, The Explanation, The Understanding.

[1] المؤلّف المراسل: **عفاف مودع** البريد الإلكتروني: **afaf.mouada@univ-alger2.dz**

1. مقدمة:

إنّ الدلالة النصيّة في إضمارها لرؤية بعينها للعالم الإنساني في علاقته بالموجودات الماديّة، من شأنه أن يفرض تعاملا إجرائيا يؤمن بكون الإبداعات الإنسانية عوالم مُصغرة يحكمها نظامها الخاص، دون أن تنغلق على ذاتها بل تنفتح على عوالم لانهائية أخرى وتشارك في خلق انسجامها، وهو ما سعت إليه سيميائية بورس ونظريات التلقي والتأويل، بما تتيحه من مرونة إجرائية تجلّت في مُصطلحات مفاهيم، هدفها المشاركة في رسم ملامح الدلالة النصيّة على اختلاف تحقّقها الفنّي، وهو ما ستسعى هذه الدراسة البحث فيه، انطلاقا مما تسّنه المصطلحات نفسها من منظومة فكرية تعكس فلسفة محدّدة للوجود في كليته، بغية إدراك المنظومة المفاهيمية المؤسسّة لبعض النظريات النقدية المابعد- حداثية ومن ثمة الوعي بكون المصطلح لا يبنى من فراغ، وإنمّا هو مؤسس معرفيا انطلاقا من فلسفة تضمر رؤية بعينها للعالم، ومن هذا المنظور طرح البحث إشكالية المعنى المزدوج في الدرس السيميائي ذات الرهان التأويلي لدى فيرديناند دي سوسير، بورس، موريس، رولان بارت، غادامير، بول ريكور، أمبرتو إيكو: فأين يتوقّف مَعنى النص لتُفتح آفاق الدلالة من منظور هؤلاء الأعلام؟ وإلى أي حد تُسهم مَعرفة القارئ المسبقة في إثراء الدَلالة النصيّة؟

وبناء عليه، قُسّمت هذه الدراسة التتبعّية التطوريّة إلى أربع وحدات رئيسة، أُستهلت بالبحث في ماهية السيميوزيس/السيميوز كمفهوم مركزّي لدى بورس، وكيف ساهم هذا المفهوم في تحديد مسار الدرس السيميائي المعاصر؛ إلى جانب طرح فيرديناند دي سوسير الألسني: (ش.موريس/ رولان بارت...)، لننتقل إلى غادامير وفلسفته التي تبحث في تاريخانية الفهم، وكيف ظهرت ملامحها لدى بول ريكور؛ الأمر الذي أتاح لنا التعمّق في مصطلح الفهم الذات والرمز لدى هذا الأخير، لنختم الدراسة بالتأويل وحدوده لدى أمبرتو إيكـــو، على أن تُفرد مُصطلحات نظرية التلقي وجمالية الاستقبال لدى ياوس وآيزر بدراسة مستقلة.

2. السيميوزيس لدى شارلز سندرس بورس:

إنَّ للمعرفة الإنسانية ضروباً وأشكالاً مُتباينة من حيث التجليّ والاشتغال؛ فقد تتجلى في عمل أدبيّ (شعر، رواية مسرح...) أو عمل فنيّ (رسم، موسيقى، نحت،...)، أو عمل نقدي (نقد النقد)، أو في سلوك تعبيريّ لا يتوسل اللغة الخطيّة إبانةً عن نفسه وهي في مجملها تضمر بناء فكريا يختزل رؤية بعينها للعالم الإنساني vision du monde؛ ومن هذا المنظور تبوّأت المناهج النقدية مهمّة تفكيك تلك الخطابات الثقافية، تحقيقا للفهم والتفهيم وتحصيلاً للمعرفة الإنسانية في امتدادها عبر الأزمنة والأمكنة مع اختلاف منطلقاتها الفكرية. ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى إسهام العالم اللســـاني فيرديـــناند دي سوسير[1] **Ferdinand de Saussure** (1857-1913م) في ميدان البحث اللغوي والنقدي حينما بشّر بميلاد« علم جديد يأخُذ على عاتقه دراسة حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية»[2]، وما انجّر عن هذه الرؤية من إثراء للبحث في العلامة اللغوية وما تحمله من أنساق تستمدّ كيانها من الواقع المجتمعي وما يسنّه من أعراف مُتواضَع عليها، وإن ركزّ هذا الأخير على خطيّة العلامة، فإنّ لبورس

[1] **فيرديناند دو سوسير**: عالم لغويات سويسري ومؤسّس المدرسة البنيوية في اللسانيات. قام تلامذته بجمع مواد بحثه ونظرياته وأفكاره ومحاضراته وقدموها بعد وفاته في الكتاب الأشهر الذي نُشر باسمه عام 1916م بعنوان "علم اللغة العام" أو "بحث في الألسنية العامة".

[2] Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, Editions Payot, paris VIe, 1972, p33.

Charles s. Pierce (1839–1914م)[1] إسهام واضح في البحث السيميائي لمّا فتح آفاقه ليشمل كافة النشاطات والسلوكات الإنسانية باعتبارها أداةً للتواصل من جهة وباعتبار ما تحمله من أنساق ثقافية تخلّد منظومة مفاهميّة تعّد لبنة من اللبنات المؤسسّة للمعرفة الإنسانية في كونيتها من جهة أخرى.

انطلق بورس في بناء نظريته العلاماتية la théorie des signes من رؤية منطقية تبحث في الحضور الذهني للعلامة « فليس المنطق في مفهومه العام- كما تصوره بورس- إلاّ تسمية أخرى للسيمياء[2]»[3]؛ العلم الذي يبحث في ميكانيزم التفكير المختزَل في علامات دالة؛ إنّه العلم الذي يُعنى بتتبّع صيرورة الإدراك العلاماتي لدى الفرد الاجتماعي باعتبار انتمائه إلى وسط ثقافي محدّد فهو يهتم بـ« دراسة الأنظمة التي تساعد المخلوق الإنساني على إدراك الأحداث والكينونات بوصفها علامات تحمل معنى»[4] وعلى هذا الأساس، قسّم بورس السيمياء إلى ثلاثة فروع رئيسة: «علم النحو la grammaire pure، المنطق la logique proprement dite علم أو فن القراءة والكتابة[5] rhétorique pure »[6]، إنّه التقسيم الثلاثي عينه الذي اعتمده في نظرية المقولات la théorie des catégories وهي نظرية تعنى بالبحث في آليات تمثُّل الأفكار والمفاهيم ذهنيا، في اقترانها بالتجـــربة الجمــعية expérience collective « سواء كان لتلك المفاهيم علاقة بموجودات حقيقية أو لا (متخيّلة)»[7] ، ف « كل مل يفعله الإنسان وكل ما يجربه وكل ما يحيط به يمكن النظر إليه باعتباره تداخلاً لمستويات ثلاثة. فالعالم يَمثل أمامنا في مرحلة أولى على شكل أحاسيس ونوعيات مفصولة عن سياق زماني أو مكاني، وهذا ما يشكل مقولة الأُولانية (...) ويمثل في المرحلة الثانية باعتباره وجودا فعليا يأخذ على عاتقه تجسيد الأحاسيس والنوعيات في وقائع مخصوصة وهو ما يشكل مقولة الثانيانية(...).ثمّ يمثل أمامنا، في مرحلة ثالثة، باعتباره قانونا(...)، وهو ما يتطابق مع مقولة الثالثانية»؛[8] إنّ هذه المقولات الثلاثة تحيل على الكينونة Mode d'être[9] في ذاتها، حينما تُعبّر عن حقيقتها المطلقة دون اقترانها بوجود مادي/ ملموس، ثمّ في تحقّقها العيني، وأخيرا في احتوائها لبعد دلالي علامي متعارف عليــها اجتماعــــــيّا، فمقــــولة الأولانـــية premiérité هــــي «الإحساس

[1] شارلز سندرس بورس: فيلسوف وعالم منطق وعالم رياضيات وإحصاء، أستاذ جامعي.. أمريكي، يطلق عليه في كثير من الأحيان " أب البراغماتية..".

[2] اخترنا مصطلح السيمياء مرادفا للمصطلح الأجنبي sémiologie/sémiotique لارتباطها، كما يقول معجب الزهراني « بحقل دلالي لغوي- ثقافي يحضر معها فيه كلمات مثل: السمة والتسمية والوسام والوسم والميسم والسيماء والسيمياء (بالقصر والمد) والعلامة»؛ ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء- المغرب، ط5، 2007م، ص178

3 La logique, dans son sens général, comme je crois l'avoir montré, n'est qu'un autre nom de la sémiotique » Charles S .Peirce, écrits sur le signe, traduit par Gérard Deledalle, seuil, 1978, p120

[4] ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص 185.

[5] الأمر الذي أكّده كل من Lousteau et Brianchon حينما ذهبا إلى أنّ:

«La Rhétorique est un art de lire autant que d'écrire» ،Anne Maurel , la critique, Hachette Éducation , 2014, p16

[6] Charles s .Peirce, écrits sur le signe, p122

[7] Ibid, p67.

[8] سعيد بنكراد، السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمن، الرباط-المغرب، (د.ط)، 2003م، ص 59.

[9] يؤثر سعيد بنكراد استعمال عبارة (نمط وجود) كمرادف للمصطلح الأجنبي Mode d'être .

(Sentiment) قبل أن تكون هناك ذات تحس، وهي النوعيات (Qualité) قبل أن يكون هناك شيء تتجسّد من خلاله هذه النوعيات (...) إنّها احتمال فحسب (Possibilité) والاحتمال نمط في الوجود لا يرتبط بحالة ولا يعود إلى واقعـــة بعينها »[1] فالسعادة والشقاء والحزن...باعتبارها أحاسيس لا تقتـــرن بحالة وموقف إنسانـــي معـــين، إنّها متحرّرة من قيود الزمان والمكان الأمر سيان بالنسبة للألوان والإشكال والإشارات لا تكتسب قيمتها الدلالية إلاّ بعد اقترانها بقانون جمعي بعينه، هنا تظهر أهميّة مقولة الثانيانية Secondité كونها تمثّل « الوجود العيني المحقّق من خلال وقائع (...)إننا مع الثانيانية ننتقل من الإمكان إلى التحقّق، أي نلج دائرة الوجود. وبعبارة أخرى، إننا نقوم بصب المعطيات الموصوفة في الأولانية داخل وقائع محدّدة من خلال نقلها من طابعها الاحتمالي إلى طابعها المتحقّق»[2]؛ ويمكننا أن نمثّل لذلك باللون الأسود في لوحة فنيّة تجريدية، أو إحساس الانتصار المتجسّد في حركات وإيماءات عدّاء رياضي... إلخ، « وكما كان الأوّل بداية وكان الثاني نهاية، فإنّ الثالث هو القانون الذي وفقه تتم العلاقة بين الأوّل والثاني. والرابط بين العناصر الثلاثة هو ما يحدّد في نهاية المطاف طريقتنا في الإمساك بالتجربة الإنسانية واستيعابها كمفاهيم أي كفكر، وهو وحده الذي يقذف بالإنسان داخل سيرورة رمزية يدرك عبرها كل شيء باعتباره شكلا رمزيا»[3]؛ فوجود اللون الأسود في اللوحة يتضمّن إيحاءات رمزية مبطّنة برؤية فلسفية معينة للحياة وليدة منظومة حياتية أفرزتها الظروف المحيطة التي تربى الفنّان في كنفها، أو وليدة وعي فكري مستقلّ ساهم في تحديد هويّة الفنّان الثقافية ومن ثمّ الفنيّة، فجاءت لوحته تعبيرا وتمثيلاً Représentation لهذه التراكمات المعرفية المستترة خلف ظلال رمزية تجلّت عبر مجموعة من الأشـــكال والألـــوان(الأسود في المثال السابق)؛ صورة العالم l'image du monde باصطلاح بروست Proust[4]، أما الإحساس بالانتصار الذي تمظهر في شخص العدّاء فيتضمّن بُعدا إيحائيا مفاده فوز العدّاء بعد تدريبات والتزامات وصراعات، فجاءت الإيماءات الجسدية تفريغا لطاقة داخلية تتضمّن رحلة من التحديّات، لتصادق على القانون الذي يقر بنتيجة النجاح الحتمية لكل مجتهد وإن طال أمد تحقُّقه.

وترتبط هذه النظريّة أيّما ارتباط بنظرية العلامة[5] التي تنقسم وفق منطق بورس نفسه إلى ثلاثية؛ « فإذا كانت سيميائية دوسوسير دوسوسير قد اتصفت بالاقتصار على العلاقات القائمة بين الدال والمدلول دون الإشارة إلى المرجع أو الأشياء التي تحيل عليها العلامة، فإنّ بورس قد جعل العلامة ثلاثية الأبعاد وهي الممثل[6] والموضوع والمؤوّل (...)، وبهذا تنفتح العلامة على دلالات متعدّدة متعدّدة يؤدي فيها المتلقي دورا مهمّا. وقد أطلق بورس على هذه العناصر الثلاثة التي تتشكل منها العلامة السيميوزيس، أو

---

[1] سعيد بنكراد، السميائيات والتأويل (مدخل لسميائيات ش. س. بورس)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب؛ بيروت–لبنان، ط1، 2005م، ص56-57

[2] المرجع نفسه، ص 61–62.

[3] سعيد بنكراد، السميائيات والتأويل (مدخل لسميائيات ش. س. بورس)، ص70.

[4] رؤية العالم vision du monde باصطلاح لوسيان غولدمان Lucien Goldmann؛ voir Anne Maurel ,la- critique, p143.

[5] يُؤثر عبد اللطيف محفوظ استعمال مصطلح الدليل ويقصد به le signe باصطلاح بورس؛ ينظر عبد اللطيف محفوظ آليات إنتاج النص(نحو تصوّر سيميائي)، الناية للدراسات والنشر والتوزيع، سورية–دمشق، ط1، 2014م، ص 87 وما بعدها

[6] الماثول: باصطلاح سعيد بنكراد في جل مؤلفاته

السيرورة الدلالية»[1] فالعلامة تشتغل وفق سيرورة دلالية ثلاثية الأقطاب: الممثل représentamen، في إحالته على موضوع objet بوجود مؤوّلinterprétant يلعب دور الوساطة بين القطبين الأوليين الممثل والموضوع فهو الذي يمنح كلا منهما بعدا دلاليا محدّد المعالم وفق تسنين مضبوط سلفا « وهذه الحركة (سلسلة الإحالات) هي ما يشكل في نظرية بورس ما يطلق عليه السيميوز، أي النشاط الترميزي الذي يقود إلى إنتاج الدلالة وتداولها. وبعبارة أخرى، إنّ السيميوز هي المسؤولة على إقامة العلاقة السيميائية الرابطة بين الماثول (الممثل) والموضوع عبر فعل التوسط الإلزامي الذي يقوم به المؤول»[2].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الموضوع في تصور بورس مباشر Immédiate وديناميكيDynamique، كما أنّ المؤول لديه مباشر وديناميكي ونهائي مهمته وضع حدّ للتأويل المنفلت. أمّا العماد fondement باعتباره أحد أهم العناصر التي تقترن بالعلامة فتتقاطع دلالته مع « أطر نظرية أخرى، من بينها مفهـــــوم الأساس (Ground) عند هيجل الذي يعني تداخل الهوية والاختلاف؛ والمحور الاستبدالي الترابطي عند دوسوسير وفق معناه العام؛ ونواة المعنى العلائقي عند علماء السرد الموضوعاتيين والتي تعني عندهم مولد تشكل التناظرات الخطابية؛ وحقل النواة المجرّدة champs Noétique) عند التواصليين، والذي يشمل كل الحالات الممكنة المترابطة مع دليل ما(...)؛ والاستمراري المطلق عند يالمسلف، والذي يشكل خلفية لترابط الدليل- على مستوى التعبير والمحتوى- مع الأدلة المعيّنة لأجزاء العالم المناظرة له؛ وأيضا مفهوم الموسوعة عند إيكو(...)»[3].

ومهما يكن من أمر، يمكننا تحديد هويته بكونه «خزان موسوعي أولاني يشتغل بوصفه خلفية لكل تجربة تواصلية تستجيب لقدرات المنتج والمتلقي على حد سواء، لأنه أساس الاستمرارية والواقعية في الفكر البورسي»[4]؛ فالمنتج في توسّله العلامة ولتكن لغوية لغوية يحيل المتلقي على سلسلة من الإحالات عبر مجموعة من الأصوات تحمل بعدا دلاليا في اقترانه بوجود مادي متحقّق أو متعارف عليه اجتماعيا باعتبار انتمائهما(المنتج والمتلقي) إلى وسط ثقافي معيّن، أو نظرا لموسوعية/ خبرة المتلقي في الظفر بمقصدية المنتَج العلاماتي؛ فكلمة (شجرة) مثلاً تحيل على العديد من الدلالات، بعضها معجمي مرتبط بالوجود المادي للشجرة، وبعضها إيحائي مجازي يضمر خلفيات ثقافية بعينها، فالعماد وفق هذا التصوّر هو الذي يحدّد المرجعية العلاماتية وما تحيل عليه وبذلك يضمن استمرارية السيرورة الدلالية بين أقطاب العلامة الثلاثة في انفتاحها على الآفاق والممكنات الفكرية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ العلامة بأقطابها الثلاثة (ممثل، موضوع، مؤول) تتفرع إلى ثلاثية أخرى؛ ذلك أنّ «النوعيات qualité والفعل fait والفكرة pensée تتجسّد على المستوى الذهني كعلامات، يسم بورس أُولاها (النوعيات) بـ

[1] موسى سامح ربابعة، آليات التأويل السيميائي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط2، 2016م، ص 12

[2] سعيد بنكراد، السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، ص 61.

[3] عبد اللطيف محفوظ، آليات إنتاج النص (نحو تصور سيميائي)، ص 105.

[4] المرجع نفسه، ص 107.

qualisignes ويطلق على الموجودات الماديّة sinsignes ويخصّ القانون كعلامة ثالثة بتسـمية légisignes[1] »، ومن هذا المنظور، فإنّ الممثل/الماثول يمكن أن يحيل على نفسه من زاوية الأولانية والثانيانية والثالثانية. ففي الحالة الأولى يكون علامة نوعية وفي الحالة الثانية يكون علامة مفردة، أما في الحالة الثالثة فينظر عليه باعتباره علامة معيارية.[2]

ويمكن للممثل/الماثول أن يحيل على موضوعه من زاوية الأولانية والثانيانيـة والثالثانية ففي الحالة الأولى يشكل أيقونةicone وفي الثانية يشكل أمارة indice، أما في الثالثة فينظر إليه باعتباره رمزا Symbole. ويحيل في المرحلة الثالثة على المؤول من الزاوية نفسها، فيكون في الحالة الأولى خبرا Rhème وفي الثانية تصديقا dicising وفي الثالثة حجة argument.[3]

ويبدو أن **موريس Charles w. Morris** (1903-1979م)[4] قد سار وهذا النهج الفكري؛ إذ نظر إلى العلامة من خلال ثلاثة أبعاد: البعد الدلالي والبعد التركيبي والبعد التداولي؛ ينظر إلى العلامة في البعد الأوّل باعتبار علاقتها بما تدل عليه، وفي البعد الثاني ينظر إليها باعتبار قدرتها على الانضواء داخل مقاطع من علامات أخرى وفق قواعد تأليفية بعينها، وأمّا في البعد الثالث فإنّ العلامة تتحدّد من خلال وظيفتها الأصلية والآثار التي تحدثها عند المتلقين، أي الطريقة التي يستعمل من خلالها المتلقي هذه العلامة[5].

وقد ترك لنا موريس مجموعة من المؤلّفات المهمّة: ست نظريات عن العقل (1932م)Six Theories of Mind، أسس نظريات العلامات (1938م) Foundations of the Theory of Signs، دروب الحياة: مقدّمة في عالم الدين (1942م) Paths of life, Preface to a world Religion، الإشارات واللغة والسلوك (1946-1955م) Signs, Language, and Behavior، الذات المنفتحة (1948م) The Open Self، تنويعات القيمـة الإنسانية (1956م) Varieties of Human Value، المعـنى والمغـزى: دراسـة في علاقـات العلامـات والقيـم (1946م)Signification and Significance: A study of The Relations of Signs and Values، المهرجان (1966م) Festival.[6]

[1] Voir Elieso Veron, La sémiosis et son monde, In langages, 14 années, n° 58,1980.la sémiotique de C.S.Peirce, p 71.

[2] سعيد بنكراد، السميائيات والتأويل، ص109.

[3] المرجع نفسه، ص 109.

[4] فيلسوف وعالم إشارات، أستاذ جامعي، اتّبع الفلسفة الوضعية المنطقية في كثير من طروحاته الفكرية، كما كان عضوا بالأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، والجمعية الأمريكية للفلسفة.

[5] ينظر، أمبرتو إيكو، العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنكراد، مر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت– لبنان؛ الدار البيضاء– المغرب، ط 2، 2010م ص56

[6] تشالز موريس، روّاد الفلسفة البراجماتية (تر وتعليق: إبراهيم مصطفى إبراهيم)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية- جمهورية مصر العربية، (د.ط)، 2011م، ص11-12

واتجه **رولان بارت**Roland Barthes (**1915–1980م**)[1] التوجه المعرفي نفسه وإن اقترب من الطرح الألسني السوسيري في كثير من أبعاده الفكرية، فالعلامة السيميائية في تصوّره نتاج العلاقة الكامنة وراء ائتلاف الشكل (الدال) بمفهومه (المدلول) على مستوى النظام الأول وتحوّل هذه العلامة إلى علامة أخرى مُشبَعة بحمولات دلالية تفرضها الثقافة في اقترانها بوسط اجتماعي مُحدّد على مستوى النظام الثاني؛ « ومن هذا المنطلق قام بارت بتحليل الأساطير في ثقافة المجتمع المعاصر. والأسطورة عنده تختلف عنها في المفهوم الكلاسيكي إذ يرى (..) أنّ الأسطورة نسيج ينتظم كافة الفضاءات المختلفة للثقافة، ومن خلالها يؤكد المجتمع كينونته وهويته»[2].

وتجدر الإشارة أنّ الدال لدى رولان بارت هو الشكل، أما المدلول فهو المفهوم، والعلامة الناجمة عن العلاقة بين الشكل والمفهوم أطلق عليها الدلالة وهي اصطلاحات تحوي نفس الأبعاد المفاهيمية التي أسّس لها دو سوسير، وأهم ما قدّمه بارت للدرس السيميائي تمييزه « بين الإيحاء أو ظلال الدلالة connotation ودلالة المعنى الحقيقي المباشرdénotation (...) فبارت يرى أنّ الدلالة العينية الحقيقية هي العلامة عند مستوى النظام الأول. أمّا الإيحاء أو الظلال الدلالي فيتولّد حين تتحوّل علامات المستوى الأول إلى دوال محضة في المستوى الثاني، فتشير إلى مداليل ينجم عنها حين تتوحد دوالها بمداليلها، دلالات جديدة. وهذا النظام الجديد، هو الذي نجده في الأدب والإبداع الجمالي»[3].

كما قرن الباحث Jean fisette[4] بين السيميوزيس البورسية باعتبارها حركة التدليل وتطوّر العلامة في إحالتها على علامة أخرى ضمن صيرورة لامتناهية من الناحية النظرية وبين الحوارية التي تعدّ عماد التفكير النقدي عند باختين Bakhtine[5] وتطوّر

---

[1] **رولان بارت:** فيلسوف فرنسي، ناقد أدبي، دلالي، ومنظر اجتماعي. أصيب بالسل في مطلع حياته، ونال شهادة في الدراسات الكلاسيكية من جامعة السوربون عام 1939، درس في بوخارست، ومصر، وأصبح أستاذا للسميولوجيا عام 1976 في الكوليج دي فرانس. اتسعت أعماله لتشمل حقولاً فكرية عديدة. تتوزّع أعمال رولان بارت بين البنيوية وما بعد البنيوية، فلقد انصرف عن الأولى إلى الثانية أسوة بالعديد من فلاسفة عصره. كما أنه يعتبر من الأعلام الكبار – إلى جانب كل من ميشيل فوكو وجاك دريدا وغيرهم – في التيار الفكري المسمّى ما بعد الحداثة، تعرض لحادث تُوفي على أثره في 25 مارس1980م.

[2] ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص 182

[3] المرجع نفسه، ص183-184.

[4] Jean Fisette «est rattaché au Département d'études littéraires et au programme de Ph.D. en sémiologie à l'Université du Québec à Montréal. Il enseigne la littérature québécoise, la théorie littéraire et la sémiotique. Membre d'associations savantes nationales et internationales, il est reconnu pour l'importance de ses recherches en études peircéennes»; https://www.babelio.com, consulté le 06/12/2021.

[5] **ميخائيل باختين** 1895 – 1975م فيلسوف ولغوي ومنظر أدبي روسي- سوفييتي. .درس فقه اللغة وتخرج عام 1918. وعمل في سلك التعليم وأسس «حلقة باختين» النقدية عام1921. صدرت مقالته الأولى: «الفن والمسؤولية» عام 1919، ثم صدر كتابه الشهير «مشكلات في شعرية دستوِيفْسكي Problems of Dostojevskys Poetics عام 1929. ونشر باختين بعض مقالاته وثلاثةً من كتبه بأسماء مستعارة: «فولوشينوف وميدفيديف». دافع عام 1940 في المعهد الأدبي التابع لأكاديمية العلوم (السوفييتية) في موسكو عن رسالة دكتوراه عنوانها: «إبداع فرانسوا رابليه والثقافة الهزلية الشعبية في العصور الوسطى وعصر النهضة». صدرت هذه الرسالة في كتاب بعد خمس وعشرين سنة من كتابتها عام 1965م. وهناك أعمال لباختين لم ترَ النور إلا بعد وفاته، لذا لم يتعرف العالم عليه إلا بعد خمسين عاماً من التعتيم حوله، ولم يحظ باختين بالشهرة إلا في نهاية حياته بعد إعادة نشر كتابه «مشكلات في شعرية دستوِيفْسكي» عام 1973، ونَشْر كتابه "إبداع فرانسوا رابليه... " الذي صدر في موسكو عام 1965، وترجم إلى الإنكليزية عام 1986 بعنوان "رابليه وعالمه Rabelais and His World ".

هذا المفهوم مع التناص Intertextualité عند جوليا كريستيفا Julia Kristeva[1] لمّا اعتبرت النص الأدبي حركة من التحولات Mouvement de transformation، وقد وجد الباحث نفسه علاقة وطيدة بين أبحاث بيرس و شعرية la poétique رومان جاكبسون Roman Jakobson[2] خاصة إذا تعلق الأمر بالاستعارة Métaphore في إحالتها على معنيين معجمي وسياقي؛ وختم بحثه بالحديث عن مفهوم التقويض La déconstruction والانحراف التأويلي La dérive interprétative لدى جاك دريدا Jacque Derrida وإسهام أمبرتو إيكو Umberto Ico في دحض هذه المقولة حينما تحدّث عن التأويل المشروع وحدوده النصيّة[3]، مستعينا بأبحاث بورس في السيميوزيس.

وفي ذلك دلالة صريحة على ما أحدثته الدراسات البورسية في المنطق السيميائي من أثرّ أضاء الكثير من الجوانب المهمة في الدرس النقدي والثقافي؛ خاصة إذا تعلّق الأمر بفتحه لآفاق الدلالة العلاماتية المتحقّقة نصياً في اختزالها لمنظـــــــومة فكرية تضمر رؤية بعينها للتجربة الإنسانية.

3. هانز جورج غادامير وتاريخانية الفكر الهرمينوطيقي:

يقول هانز جورج غادامير في مؤلّفه الحقيقة والمنهج: « ليس بوسعنا ببساطة، مع ذلك، أن نعتبر إعادة بناء السؤال الذي يكون نص معين إجابة عنه منجزا للمنهج التاريخي. فالشيء الأهم هو السؤال الذي يطرحه علينا نص ما، وحيرتنا بإزاء كلمة تراثية لذلك فإنّ فهم هذا السؤال، أو هذه الكلمة، يشتمل على مهمة التوسط الذاتي التاريخي بين الحاضر والتراث. وهكذا تُعكس العلاقة بين السؤال والجواب. فالصوت الذي يكلمنا من الماضي – سواء أكان نصا، أو عملا، أو أثرا– هو نفسه يطرح سؤالا»[4]

هذا ويضيف في المؤلف نفسه قائلا: « إنّ العلاقة بين المساءلة والفهم هي التي تمنح التجربة التأويلية بُعدها الحقيقي. ومهما حاول المرء أن يفهم فلربما يترك حقيقة ما يُقال مفتوحة، ومهما نبذ المعنى المباشر للموضوع واعتبر بدلا منه الدلالة الأعمق، ولم يعدّ

---

[1] **جوليا كريستيفا**: ولدت يوم 24 يونيو من عام1941م، فيلسوفة بلغارية فرنسية وناقدة أدبية ومحللة نفسانية وناشطة نسوية ومؤخرًا روائية، مؤسسة لجنة جائزة سيمون دي بوفوار. تعيش في فرنسا منذ منتصف ستينيات القرن العشرين. وهي الآن أستاذة فخرية في جامعة باريس ديديرو. ألّفت أكثر من 30 كتابًا، منها: قوى الرعب، وأساطير الحب، والشمس السوداء: الاكتئاب والسوداوية، وبروست والإحساس بالزمن، وثلاثية أنثى عبقرية. مُنحت وسام جوقة الشرف الوطني، ووسام الاستحقاق الوطني، وجائزة هولبرج الدولية التذكارية، وجائزة هانا أرندت، وجائزة مؤسسة فيجن97، التي منحتها إياها مؤسسة هافل. أصبحت كريستيفا مؤثرة في التحليل النقدي الدولي والدراسات الثقافية وحركة النسوية بعد أن نشرت كتابها الأول في عام 1969. تتضمن مجموعة أعمالها الضخمة كتبًا ومقالات تتناول التناص، وعلم العلامات (السيميائيات)، وعلم اللغويات (اللسانيات)، والنظرية الأدبية والنقدية، والتحليل النفسي، والتحليل السياسي والثقافي، والفن وتاريخه، والسيرة الذّاتية والمذكرات. اشتُهرت أيضًا في الفكر البنيوي وما بعد البنيوية

[2] **رومان جاكبسون**: (1896–1982م) عالم لغوي، وناقد أدبي روسي، من رواد المدرسة الشكلية الروسية .وقد كان أحد أهم علماء اللغة في القرن العشرين وذلك لجهوده الرائدة في تطوير التحليل التركيبي للغة والشعر والفن.

[3] Voir Jean Fisette, Sémiosis / Semiosis, ww.w.jeanfisette.net, consulté le (25/01/2021), p1.2

[4] هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج الخطوط الأساسية للتأويلية، (تر: حسن ناظم وعلي حاكم صالح)، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس– الجماهيرية العظمى ط1، 2017م، ص496.

هذه الدلالة صادقة إنما ذات معنى فقط، بحيث أنّ إمكانية حقيقتها تظل مسألة غير محسوسة، فإنّ هذا هو طبيعة السؤال الحقيقية والأساسية: أي ترك الأشياء غير محددة. فالأسئلة تظهر دائما الإمكانات غير المحددة التي ينطوي عليها شيء ما»[1]

وفق هذا التصور، لايعدو النص الإبداعي أن يكون خطابا ثقافيا جامعا لنظم فكرية بعينها تستدعي قارئا حذقا يملك فراسة فك الشفرات اللغوية للظفر بالرؤى الكامنة بين ثناياها في تخليدها لرؤية إنسانية استمدّت هويتها من السياق الثقافي الذي انبعثت من لدنه فلسفة معينّة للحياة تجسّدت في صورة جمالية/العمل الإبداعي، « وينجم عن هذا (..) أنّ عملية الفهم لن تكون مجرّد متعة جمالية خالصة، بل ستقوم على نوع من المشاركة في المعرفة التي يحملها النص»[2]؛ وهو المنطلق الذي أكّده **هانز جورج غادامير Hans-Georg Gadamer (1900 – 2002م)**[3] في سياق تأسيسه لهرمينوطيقا Herméneutique متجاوزةً للبعد الرومانسيRomantique الذي تجلّى في هيرمينوطيقا شلايرماخرSchleiermacher (1768-1834م)[4] وفلهالم دلتاي Wilhelm Dilthey[5] (1833-1911م)؛ فغادامير سعى في كتابه الحقيقة والمنهج « التأكيد على إجراءين جوهريين: ضرورة تخليص عملية الفهم من الطابع النفسي (...) وبالتالي ضرورة فصل النص عن ذهنية المؤلف وروح العصر الذي ينتمي إليه. ثمّ ضرورة تحويل الاهتمام إلى عملية الفهم في حدّ ذاتها، في حيثياتها الخفية، وفي بعدها التاريخي»[6]

فالنص وحدّه هو الذي يخلق كياناته الخاصة، فهو الذي يتيح للقارئ فرصة المشاركة في خلق معناه وإن بَعد زمن التلقي عن زمن الإنتاج الأصلي، إنّ الحوار الذي ينجم عن التقاء الذهنيات، الذهنية المتحقّقة نصيا عبر رمزية اللغة بحمولاتها الثقافية وذهنية القارئ بما يفقه من معرفة وليدة فترة تاريخية شكّلت هويته الاجتماعية ومن ثمّ الإنسانية، من شأنه أن يجعل النص الواحد نصا متعددا ذلك

---

[1] المرجع السابق، ص 497

[2] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة (دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة)، الدار العربية ناشرون، بيروت–لبنان؛ منشورات الاختلاف الجزائر العاصمة – الجزائر، ط1، 2007م، ص 37.

[3] **هانز جورج غادامير**: فيلسوف معاصر، مؤسس مدرسة التأويل .يكمن إنجازه في اكتشاف وإبراز طبيعة الفهم البشري على مستوى نظري– منهجي: «فالحقيقة في تصوّره مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمنهج، ولا يجوز الاعتماد على واحدة دون الآخرى».

[4] **فريدريك دانيال إرنست شليرماخر**: (1768 – 1834 م) كان لاهوتيا وفيلسوفا وعالم الكتاب المقدس، ويشكل عمله جزءا أساسيا في مجال علم التأويل الحديث. وكان له أثر عميق على الفكر المسيحي في وقت لاحق، سميً "أب علم اللاهوت الحديث"، ويعتبر زعيم المسيحية الليبرالية .وحركة الأرثوذكسية الجديدة في القرن العشرين.

[5] **فلهالم دلتاي**: فيلسوف تاريخ وحضارة، ألماني الجنسية. سعى إلى إيجاد ثورة "كوبرنيكية" في علوم الروح (ما يسمى الآن العلوم الإنسانية)، وذلك بتأسيس علم تجريبي للظواهر الروحية. كانت لأبحاثه التاريخية عن عصر النهضة والاصلاح الديني وعصر التنوير تأثيرات عظيمة في فهم وضع الإنسان في العالم وتنوع تجاربه واتساع معنى الحياة لتشمل كل ما يصدر عن الإنسان من نظم وقوانين وإنتاج عقلي...وفلسفة دلتاي هي جوهريا فلسفة الحياة. والحياة عنده– ليست الوظائف الحيوية التي يشارك الحيوان فيها الإنسان، بل هي أساسا جماع الحيوات الانسانية الفردية التي تؤلف الواقع الاجتماعي والتاريخي لحياة الانسانية كلها...جمعت مؤلفات دلتاي في 12 مجلدا، طبعت في برلين بين سنة 1913 وسنة 1936م، ما عدا المجلد العاشر فإنّه لم يطبع إلاّ في الطبعة الثانية لمجموع مؤلفاته، وقد تمت هذه الطبعة الثانية في اشتوتجرت وجيتنجن من سنة 1957م إلى سنة 1960م، وهي طبعة أسقطت منها بعض كتب دلتاي أحصاها الدكتور عبد الرحمن بدوي في موسوعته؛ ينظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت–لبنان، ط1، 1984م، ص475–476–477–478.

[6] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة (دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة)، ص36.

أنّ الظفر بالحقيقة الموضوعية للنص الإبداعي ضربٌ من التخييل [1]، إنّ عملية الفهم في تصوّر غادامير تتحقّق بفعل اندماج أفق النص وأفق القارئ ضمن صيرورة تاريخية مستمرّة un continuum وهو بذلك ينحو منحى أستاذه مارتن هيدغر Marten Heidegger[2]، الذي حاول أن يقيم هيرمينوطيقا للوجود herméneutique de l'existence[3] تبحث أساسا في وعي الإنسان لوجوده في انتمائه إلى وجود أوسع/ العالم وهو ما لا يتأتى إلا بفهم التاريخ في علاقة ماضيه بحاضره « وفي هذا التأسيس الوجودي للمعرفة اعتبر أنّ الفهم والوجود أمران مترابطان أو متوحدان إن شئنا الدقة. في مثل هذا التصور فقدت اللغة طابعها الإنساني وتحولت إلى طاقة وجودية تنتظم وجود العالم والإنسان معا، وكان من الطبيعي - في ظل هذه النظرة - أن يستقل العمل الفني عن مبدعه، وأن يكون مجلى وجوديا، ويصبح فهم العمل الفني والأدبي- بالتالي- مهمة وجودية تثري الوجود الإنساني في العالم وفهم الإنسان لهذا الوجود»[4]

إنّ اللغة من هذا المنظور الفلسفي تختزل التجربة الإنسانية في رحلة إدراكها لذاتها ومن ثمّ إدراكها للعالم، الذي يظهر من خلالها (اللغة) فهي التي تمتلك ميكانيزم فك شفراته (العالم)، و« من الطبيعي - في ظل هذه النظرة- أن لا يكون النص تعبيرا عن "حقيقة داخلية" كما أن الشاعر لا ينقل لنا داخل الشاعر أو أحاسيسه أو تجربته، بل الأحرى أن يكون تجربة وجودية. وكما أنّ اللغة - وكذلك العالم- ليست موضوعية أو ذاتية، فكذلك النص لا يمكن النظر إليه على أنّه تعبير ذاتي كما في الرومانسية، أو على أساس أنّه تعبير موضوعي كما هو عند إليوت دلتاي، بل هو مشاركة في الحياة " تجربة وجودية"»[5]، ومهمة القارئ تتبع تلك الآثار الخفية الكامنة في أعماق النص من خلال امتلاكه لميكانيزم القراءة الواعية التي لا تكتفي بالظاهر النصي بل تغوص في الأعماق استجلاء للحقيقة الوجودية المختزلة بين ثناياه وهو بذلك يكتشف حقيقة وجوده الذاتي la réalité de sa propre

---

[1] فضّلنا مصطلح التخييل لارتباطه بالقوة الإدراكية لدى القارئ في تفاعله مع النص المتخيّل/الإبداعي.

[2] **مارتن هيدغر** :(1889- 1976م) فيلسُوف أَلَمَّانِي .ولد جنوب ألمانيا، درس في جامعة فرايبورغ تحت إشراف إدموند هوسرل مؤسس الظاهريات، ثم أصبح أستاذاً فيها عام 1928 م وجه اهتمامه الفلسفي إلى مشكلات الوجود والتقنية والحرية والحقيقة وغيرها من المسائل. ومن أبرز مؤلفاته :الوجود والزمان 1927 م؛ دروب مُوصَدة 1950 م، ما الذي يُسَمَّى فكراً (1954) ؛ المفاهيم الأساسية في الميتافيزيقا(1961) ؛ نداء الحقيقة؛ في ماهية الحرية الإنسانية 1982 م؛ نيتشه 1983 م. تميز هيدغر بتأثيره الكبير على المدارس الفلسفية في القرن العشرين ومن أهمها الوجودية، التأويليات، فلسفة النقض أو التفكيكية، ما بعد الحداثة . ومن أهم إنجازاته أنه أعاد توجيه الفلسفة الغربية بعيداً عن الأسئلة الميتافيزيقية واللاهوتية والأسئلة الإبستمولوجية، ليطرح عوضاً عنها أسئلة نظرية الوجود (الأنطولوجيا)، وهي أسئلة تتركز أساساً على معنى الكينونة (Dasein) .

[3] **الفلسفة الظاهراتية phénoménologie**: « الظاهراتية أو الفينومينولوجيا(...) مدرسة فلسفية تعتمد على الخبرة الحدسية للظاهر كنقطة بداية (أي ما تمثّله هذه الظاهرة في خبرتنا الواعية)، ثمّ تنطلق من هذه الخبرة لتحليل الظاهرة وأساس معرفتنا بها، غير أنّها لا تدعي التوصل لحقيقة مطلقة مجرّدة سواء في الميتافيزيقيا أو في العلم بل تراهن على فهم نمط حضور الإنسان في العالم، يمكن أن نرصد بدياتها مع هيغل كما يعتبر مؤسس هذه المدرسة إدموند هوسرل، تلاه في التأثير عليها عدد من الفلاسفة مثل: هايدغر سارتر ومرلوتونتي وريكور، وتقوم هذه الدراسة الفلسفية على العلاقة الديالكتية بين الفكرة والواقع»؛ مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ط1، 2009م، ص 145.

[4] حامد أبو زيد، إشكالية التلقي والتأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان؛ الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2014م ص37

[5] حامد أبو زيد، إشكالية التلقي والتأويل، ص33

existence « فإذا انتقلنا للنص الأدبي الذي يتجلى فيه العالم من خلال اللغة، وجدنا أنّه - مثل العمل الفني- يقوم على التوتر بين الانكشاف والوضوح من جهة، والاستتار والغموض من جهة أخرى. ومهمة الفهم هي السعي لكشف الغامض من خلال المستتر من خلال الواضح والمكشوف، اكتشاف ما لم يقله النص من خلال ما يقوله بالفعل وهذا الفهم للغامض والمستتر يتم من خلال الحوار الذي يقيمه المتلقي مع النص»[1]؛ ومن هذا المنطلق أكّد غادامير أنّ الفهم يتأسس انطلاقا من خلق ثقافة التفاهم بين المتلقي و ما يقوله النص ضمن جدلية تاريخية تقوم على حوار معرفي يُفهم فيها السابق/الماضي ضمن الآني/الحاضر والمستقبل، إذ « لم تعد عملية الفهم، كما كانت لدى شلايرماخر ودلتاي، تقوم على تحويل الذات إلى الغير أو أن نعيش من جديد ما كان الآخر قد عاشه بل تقوم على التفاهم l'attente et l'accord حول الشيء المقصود نفسه»[2]؛ فليس المهم من صاحب القول المبدع ولكن ما قاله ضمن صياغة تعبيرية بعينها لذلك أكّد غادامير على الدور الكبير الذي تؤديّه الكتابة في صورتها الخطية من فضل تخليد مقولات الزمن في صيرورتها المتتابعة، لما تتسم به - في الآن نفسه - من توثيق للمعرفة الإنسانية و مرونة تمنح القارئ الواعي قابلية استكشاف رؤية وجودية قد تعدّل من قناعته وقد تزيده تمسّكا بها، إننا - في تصوّر غادامير- « نفهم ونتفاهم ونتحاور لأنّ أشياء النص أو شيئيّة الكتابة تنادينا من أعماق وآفاق التراث الذي ننتمي إليه ونسكن فيه بقدر ما يسكن فينا ويتأصّل في حفريات ذاكرتنا وأغشية وعينا. هذا الحضور المزدوج (النحن والتراث) في اللحظة الراهنة (انصهار الآفاق وتداخل العوالم وتشابك التصورات) ينم عن مبدإ المشاركة في تشكيل معنى مشترك وبناء حقيقة جامعة وإدارة حوار مؤتلف ومختلف على قاعدة السؤال والمساءلة والجواب والتجاوب. قوام الحوار هو السؤال»[3]، وما اللغة من هذا المنـــظور إلاّ« فضاء هذا التواصل بين الأفراد والحوار غير المكتمل بين الحاضر والماضي وفق إيقاع المنطوق الداخلي واللفظ الجوّاني»[4]؛ إنّ رؤية غادامير الفلسفية إزاء وجودية التاريخ المنصهر في اللغة المعبّر بها شكّلت المنطلق الرئيس لجمالية الاستقبال l'esthétique de la réception، « حيث ركّزت هذه الأخيرة اهتمامها على المعنى وعلى النص الأدبي في علاقتهما بالقارئ أو المتلقي وعلى الدور الحاسم الذي يلعبه هذا الأخير في تحديد هوية كل منهما. وهي ذاتها المبادئ التي انطلق منها هانس روبرت ياوس في محاولته تحديد تاريخ الأدب(...) انطلاقا من كون كل فهم، وكل معنى، وكل حقيقة، وكل معرفة ناجمة عن العمل الفني، هي نتيجة التفاعل بين الأفق الدلالي والتاريخي للعمل الفني وأفق التلقي أو أفق الانتظار المشروط تاريخيا والمتغير باستمرار، تولدت فكرة تاريخ التلقيات»[5]، وفي ذلك تأكيد بشكل من الأشكال على الوجود التاريخي الذي أكّده غادامير في سياق بحثه الذي يقوم على عالمية التأويل والتفاعل الناجم عن تاريخانية المعرفة الإنسانية في أبعادها المختلفة، فعلى الرغم من الانتقادات الموجّـــهة إليه خاصة إذا تعلق الأمـر باعتبـار هرمينوطيـــقيته

[1] المرجع السابق، ص36.

[2] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص38.

[3] هانز جورج غادامير، فلسفة التأويل(الأصول. المبادئ. الأهداف)، تر: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة- الجزائر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، الدار العربية للعلوم، بيروت- لبنان ، 2016، ص 25

[4] المرجع نفسه، ص26

[5] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص47

«هيرمينوطيقا لغوية تعطي الأولوية والصدارة لعامل اللغة كبعد كوني وشامل يشترط كل الأبعاد الأنطولوجية والأنثربولوجية للكائن عندما اعتبر أنّ الوجود الجدير بالفهم هو اللغة»[1] ، وكذلك اعتماده على مقولة التقليد والتراث كـ « مؤسّس لعملية الفهم»[2] وما انجرّ عن هذه الرؤية من انتقادات تمثّلت في الطرح التفكيكي الذي أرسى دعائمه جاك دريدا[3] jacques Derrida (1930-2004م) « الذي كان يرى في كل ما هو تقليدي سلبية يجب تجاوزها، وكذلك الشأن بالنسبة لنقاد الوعي[4] ونقاد الإيديولوجيا[5] والسلبية الذين كانوا يدعون إلى التموقف السلبي من التقليد، أي ضرورة الكشف عن خلفياته ونقائصه قصد تجاوزه نحو الأفضل. وهو الموقف الذي تبنّته مدرسة كونستانس[6] بحذافيره»[7]، أو مثلما ذهب إليه هبرماس يورغن Jürgen Habermas[8] (1929م)حينما اعتبر أنّ تأويلية «غادامير تجعل التراث فوق العقل النقدي»[9] إلاّ أنّه استطاع أن يترك بصمة في مجال الدراسات التأويلية و بذلك عبّد الطريق للدراسات اللاحقة والتي جعلت من اللغة في حركيتها وديناميكيتها في تمظهراتها المختلفة مدار التأويل وعمـــاده وإن اختلفت زاوية النظر إليها (اللغة) .

ويمكننا استحضار شهادة محمد شوقي الزين في تقديمه لترجمة كتاب هانز جورج غادامير:«فلسفة التأويل»؛ حينما أكّد بأنّ هذا الأخير (غادامير):« لا يركز (..) على الوجود اللغوي وإنّما يعطي أهمية بالغة للوجود التاريخي دون أن يسقط في التاريخانية الساذجـة (فالوجود التاريخي في مستوياته وتجلياته) يختزن معايير عالمية للحياة العملية. فالتراث أو القيم الثقافية لها دلالة وقيمة أخلاقية وكل فعل أو ممارسة هي مشترطة بتاريخية وجودنا ولا تنكشف الحقيقة إلاّ كصناعة تاريخية متجذّرة في الزمانية وتتغير تبعا لتغير آفاق المعنى وتشكل التصور أي حسب درجة تعقيد وتشابك المشكل التأويلي الذي يطرح وتصاغ بشأنه جدلية الجواب والتواصل العابر

[1] هانز جورج غادامير، فلسفة التأويل، ص 27

[2] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص47

[3] **جاك دريدا**: هو فيلسوف وناقد أدب فرنسي معاصر ولد في مدينة الأبيار بالجزائر يوم 15 يوليو – 1930 وتوفي في باريس يوم 9 أكتوبر2004 م. يعد أول من استخدم مفهوم التفكيك بمعناه الجديد في الفلسفة، وأول من وظفه فلسفياً بهذا الشكل وهو ما جعله من أهم الفلاسفة في القرن العشرين يتمثل هدف دريدا الأساس في نقد منهج الفلسفة الأوربية التقليدية، من خلال آليات التفكيك الذي قام بتطبيقها إجرائيا من أجل ذلك. بالنسبة لدريدا فإن للتفكيك تأثيرا ايجابيا من أجل الفهم الحقيقي لمكانة الإنسان في العالم فقد أزاحه عن موقعه المركزي بعيدا، كان دريدا بأفكاره الفلسفية مختلفا تمام الاختلاف ومغايرا للسائد الفلسفي لذا كان يتلقى دائما اتهامات في قضايا عدة فأحياناً كان يُتهم بالمبالغة في التحليل وأحياناً كان يُوصف بالظلامية والعبثية وتعمد الغموض، حاول دريدا الإجابة على أسئلة خصومه الذين كان من أشدهم وطأة عليه هابرماس. كما عالج دريدا مجموعة واسعة من القضايا والمشاكل المعرفية السائدة في التقاليد الفلسفية (المعرفة، الجوهر، الوجود، الزمن) فضلا على معالجاته المستمرة حتى وفاته لمشاكل : اللغة، والأدب، وعلم الجمال، والتحليل النفسي، والدين، والسياسة والأخلاق لكنه في فتراته الأخيرة ركز على القضايا السياسية والأخلاقية.

[4] مدرسة جنيف: ج. موليه، وم.بلانشو، وج.ستاروبنسكي

[5] مدرسة فرانكفورت وغيرهم: أدرنو وآخرون

[6] منظرو جمالية التلقي بألمانيا

[7] عبد الكريم شرفي، من فلسفات القراءة إلى آليات التأويل، ص48.

[8] **يرغن هابرماس** فيلسوف وعالم اجتماع ألماني الجنسية .يعتبر من أهم علماء الاجتماع والسياسة في عالمنا المعاصر. ولد في دوسلدورف، ألمانيا وما زال يعيش بألمانيا. يعد من من أهم منظري مدرسة فرانكفورت النقدية له أزيد من خمسين مؤلفا يتحدث عن مواضيع عديدة في الفلسفة وعلم الاجتماع وهو صاحب نظرية الفعل التواصلي

[9]هانز جورج غادامير، فلسفة التأويل، ص28

للذوات»[1]، ليكون بذلك قد اختزل التصوّر الفلسفي لهانز جورج غادامير الذي كان له حضور قويّ في هيرمينوطيقا **بول ريكور Paul Ricœur** (1913- 2005م).

4. الذات، الرمز والفهم في هيرمينوطيقا بول ريكور:

يُعرب بول ريكور في مؤلفه (صراع التأويلات) قائلا: « وإنّي لأشير هنا إلى ضرب من أثر المعنى، والذي نجد بموجبه أنّ أي تعبير له أبعاد متغيّرة، فهو إذ يعني شيئا، فإنّه يعني في الوقت نفسه شيئا آخر، من غير أن يتوقف عن أن يعني الأول. وبالمعنى الحرفي للكلمة، فإنّ هذا يتمثل في الوظيفة المجازية للغة (فالمجاز هو أن يقول المرء شيئا آخر وهو يقول شيئا ما)»[2]

انطلق بول ريكور في فلسفته التأويلية من مركزية الذات المؤولة في فهم النص الإبداعي الذي تجعل من المعنى الضمني الكامن في بنائه اللغوي في شكله الفنّي غاية تُدرك من خلالها ذاتيتها(ذاتية الذات المؤوّلة) التي تتشكّل وفق صيرورة لا تكتفي بوجودها المادي وإنّما تتجاوزه نحو وعيها بكينونتها الذاتية التي تبقى ملامح منها خفيّة عنها (عن الذات) وعصيّة عن الفهم، وهو ما لا يمكن لها أن تتداركهُ إلاّ بتوجّهها نحو الآخر بوجوديته الذاتية المستقلّة والمتصّلة في الآن نفسه، حيث حاول ريكور في كتابه la question de l'ipséité-in soi-même « بلورة مفهوم للذاتية(...) ينتهي في ذلك إلى فصل مفهوم الذات عن مفهوم الأنا (...) وإلى التمييز بين معنيين للهوية: الهوية بمعنى الذاتية ipséité المتعلّقة بـle soi والهوية بمعنى التماهي mêmeté أي امتلاك خصائص ممتدة في الزمن تخول لنا تعيين هذه الهوية رغم التغيرات التي تطرأ عليها، كما يصوغ معنى آخر للهوية بمعنى الآخرية l'altérité، أي ضرب التأثير الذي يمارسه الخارج والآخر على الذات والذي يستحيل بموجبه إلى مقوم داخلي لوجودها وإلى داخل في تعريفها»[3]

وما النص، وفق هذا التصوّر، إلاّ آخر لغوي محمّل بفلسفة معيّنة للوجود ، إنّه مستقل لأنه يُبنى وفق نظام لغوي مؤّهل للتعبير عن ذاته؛ وهذا يعني استقلاليته من حيث المعنى المتحرّر من مقصدية مؤلفه، وهو متصل ومرتبط بالذات القارئة لأنه لا يمكن له أن يتحقّق إلّا بفعل القراءة العلمية acte de la lecture scientifique التي يضطلع بها قارئ عالم un lecteur savant قارئ مؤهّل لتجاوز تحليل بنيته اللغوية (الفهم) نحو تفسير معناه؛ مؤسّسا بذلك لمعرفة جديدة من النص ذاته بما يحويه من أفكار إنسانية متجسّدة لغوياً تلُامس في الأغلب الأعم كيانه الوجـــودي وتجاربه الحياتية. «إنّ كل نص حتى وإن كان خياليا هو تعبير عن الحياة التي نعيشها(...) والسرد ليس هروبا، أو زمنا ضائعا أو عالـــم خيالي، إنّه طريقة في تطوير ذاواتنا»[4]؛ ينقل السرد وفق بول ريكور تجاربنا الحياتية التي لا يستطيع الجميع التعبير عنها بنفس الصور الفنية في اضمارها لرغباتنا طموحاتنا تحدّياتنا موقفنا الصريح من ما يعتري عالمنا الإنساني من مواقف معيشة مختلفة؛ فهي وعلى الرغم من اختلافاتها تمنحها الكتابة الخطيّة حق الوجود

[1] هانز جورج غادامير، فلسفة التأويل ، ص29

[2] بول ريكور، صراع التأويلات دراسات هيرمينوطقية (تر: منذر عياشي)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، ط1، 2005م، ص98-99

[3] حسن بن الحسن، النظرية التأويلية عند بول ريكور، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، ط1، 1992م، ص23.

[4] «Un récit n'est pas une fuite, un temps perdu ou un monde imaginaire. C'est une manière de travailler sur soi-même, même, sa relation au monde, aux autres, à la société, a son entourage et son époque » ; Voir, Odile Riondet, Paul Ricœur : le texte, le récit et l'histoire, paris, t.53, N°2, 2008, p.10

وتضمن إدراجها ضمن سيرورة الفكر الإنساني في تنوعه وتفاعله، لتحرّر بعد فعل القراءة كل ما يختلج في ذواتنا من ردود فعل إزاء كل ما يمكن اعتباره نشاطا إنسانيا محدّدة بذلك مكاننا في هذا الفكر. لذلك إنّ الكتابة في تصوّر بول ريكور: «الكتابة هي حفظ للخطاب (في صورته الشفاهية)، في الحقيقة هو أرشيف للذاكرة الفرديـــة والجماعية»[1]

إلاّ أنّ الكتابة النصيّة في إضمارها لتجربة إنسانية لا تسلم نفسها للقارئ بسهولة، بل تختفي وراء أقنعة الرمز اللغوي الذي يستمدّ مشروعيته من « التراث والتقاليد والقيم الثقافية العابرة للأجيال والمرويات التي تشكلت تحت تأثيرها تصوراتنا عن السرد»[2] لذلك يهتم بول ريكور بـ تفسير الرموز كعملية أساسية لعبور النص في صورته الخطية/السطحية « وهو يفرق بين طريقتين للتعامل مع الرموز، الأولى هي التعامل مع الرمز باعتباره نافذة نطل منها على عالم من المعنى، والرمز في هذه الحالة وسيك شفاف ينم على ما وراءه[3].(...)، وهذه الطريقة يطلق عليها ريكور Dymythologizing. والطريقة الثانية[4] (...) هي التعامل مع الرمز باعتباره حقيقة زائفة لا يجب الوثوق بها، بل يجب إزالتها وصولا إلى المعنى المختبئ وراءها Dymystification. إنّ الرمز في هذه الحالة لا يشف عن المعنى بل يخفيه ويطرح بدلا منه معنى زائفا. ومهمة التفسير هي إزالة المعنى الزائف السطحي وصولا إلى المعنى الباطني الصحيح»[5]، ومهمّة القارئ العالم lecteur savant أن يتجاوز التحليل الشكلي l'analyse formelle نحو التحليل التأويلي l'analyse interprétative، دون أن يقلل من دورle lecteur profane في تحديد مصير العمل الإبداعي fait partie du destin de l'œuvre[6]، لذلك قارب بول ريكور بين التخمين والتصديق في سياق تمييزه بين الفهم والتفسير؛« التخمين La conjecture بوصفه فهما أوليا وابتدائيا، والتصديق la validation بوصفه مرحلة تفسيرية ضرورية للوصول إلى فهم عميق. ويقارب ريكور بين طرفي الصيغة الجديدة من الجدل بين الفهم والتفسير من جهة، وشكلي أو لحظتي التأويل في هيرمينوطيقا شلايرماخر، والمتمثلين في التأويل النحويl'interprétation grammaticale والتأويل التقني l'interprétation technique من جهة أخرى»[7]؛ فإذا كان التخمين يكتفي بالمعنى السطحي للتمظهر اللغوي فإنّ التصديق يبحث عن دلالات تلك المعاني،« ووفقا لهذا التمييز فإنّ معنى أو معاني النص مرتبطة بمضمونه المحايث[8] أو الملازم له، في حين أنّ

[1] « L'écrit conserve le discours et en fait une archive disponible pour la mémoire individuelle et collective » ; Odile Riondet, Paul Ricœur : le texte, le récit et l'histoire, p : 7

[2] بول ريكور، الزمان والسرد(التصوير في السرد القصصي)، ج2 ، تر: فلاح رحيم، مر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت-لبنان، ط1، 2006م، ص08

[3] يمثّل هذه الطريقة بولتمان Bultman في تحطيمه للأسطورة الدينية في العهد القديم والكشف عن المعاني العقلية لهذه الأساطير

[4] يمثّلها كل من فرويد وماركس ونيتشه

[5] حامد أبو زيد، إشكالية التلقي والتأويل، ص 44

6 Voir, Odile Riondet, Paul Ricœur : le texte, le récit et l'histoire, p :8

[7] حسام الدين درويش، إشكالية المنهج في هيرمينوطيقا بول ريكور وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية(نحو تأسيس هيرمينوطيقا للحوار، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة-قطر، ط1، 2016م، ص231-232.

[8] « مفهوم **المحايثة**: من المفاهيم التي أشاعتها البنيوية في بداية الستينات، ليصبح بعد ذلك مفهوما مركزيا استنادا إليه يفهم النص وتنجز قراءاته. (...) والمقصود بالتحليل المحايث أنّ النص لا ينظر إليه إلاّ في ذاته مفصولا عن أي شيء يوجد خارجه. والمحايثة بهذا المعنى هي عزل النص والتخلص من كل السياقات المحيطة به. فالمعنى ينتجه نص مستقل بذاته ويمتلك دلالاته في انفصال عن أي شيء آخر»؛ سعيد بنكراد، السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، ص165.

دلالـــة النص متعلّقة بسياق القراءة وبالخيارات التقويميّة للقارئ والمتصّلة بمصالحه وقيمه ومعاييره الشخصية»[1]، ولقد جاء هذا التمييز تأكيدا لفكرة استقلالية الدلالة النصّية عن قصد الكاتب l'auteur بعد تثبيتها بفضل الكتابة؛ وهو استقلال ذو ثلاثة أوجه:

- فهو أولا استقلال تجاه قصد الكاتب؛ وهذا لا يعني أن الأشياء التي يقولها النص تفلت من الخضوع لعالم قصود الكاتب ونياته كما سبق، بل إن عالم النص يفجر عالم كاتبه[2].

- وهو ثانيا استقلال تجاه الوضع الثقافي وتجاه كل الاشتراطات الاجتماعية لإنتاج النصوص؛ ذلك أنّ خاصية أي عمل-فني أو أدبي أو غيره- هي أن يجاوز اشراطات إنتاجه النفسية و الاجتماعية لكي ينفتح على قراءات غير محدودة، قراءات خاضعة هي الأخرى لسياقات اجتماعية وثقافية متحولة باستمرارdécontextualise pour se recontextualiser [3]

- وهو أخيرا استقلال تجاه المرسل إليه أو تجاه المتلقي الأولي؛ وذلك باندماجه في العالم الذي يفتحه له النص وبتملكه لأشيائه وأخيرا بتحقق ذاتيته من خلال فعل القراءة والتأويل ذاته.[4]

مع العلم أنّ بول ريكور يتخطّى صرامة المنهج الواحد في قراءة النص ويعتبر أنّ مفهوم التفسير كعملية تأتي بعد فهم معنى النص «لا يتجسّد في منهج علمي بعينه بل هو انفتاح على تعدّدية المناهج وهو ما نلمسه في تحاور ريكور مع الكثير منها، مثل الفرويدية والبنيوية والماركسية وغيرها بوصفها محاولات تنطلق من الفهم نحو إنجاز توافق نصي معيّن يختزل جوانب ويؤكّد جوانب أخرى»[5] ، فالقراءة في تصوّر بول ريكـــور« فعالية تكوينية وتأسيسية لا تستغني عن التنظير لها أيّة محاولة تهدف إلى تقديم وصف متكامل للعملية الإبداعية السردية أو الشعرية»[6]. والنص -حسبه- هو الأساس في القراءة؛ إذ ينطلق منه القارئ الواعي الذي يكمن يكمن دوره الرئيس في تفكيك الشفرات الكامنة في فحوى النص، فالعبرة في تتبّع الخارطة التي يرسمها النص لفهم ما يطرحه من تساؤلات وإذا اعتبرنا أنّ « النص الأدبي تعبيرا عن الحياة بصورة افتراضية يغلب عليه طابع الخيال، وإذا قسنا النص على الحياة، فإن هذه الأخيرة تكرار مستمر، وفي تنام مطرد، قد يصل حدَّ الإبهام، وفي هذه الحال فإن الخطاب الأدبي يقول دومًا ما تتطلع إليه استمرارية الحياة، إلى أن يصبح هذا الخطاب بدوره ملغزا، ولعل ما بين إبهام الحياة ولغز النص يغيب المعنى الحقيقي؛ الأمر الذي يترك لدى المتلقي حالة من الغربة. ومن هذا المنظور يستمد علم التأويل مسوغاته ومشروعيته أو على حد تعبير غادامير أن الحاجة

[1] حسام الدين درويش، إشكالية المنهج في هيرمينوطيقا بول ريكور وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، ص 236

[2] ينظر، حسن بن حسن، النظرية التأويلية عند ريكور، ص47.

[3] ينظر، المرجع نفسه، ص 47

[4] ينظر، المرجع نفسه، ص47-46.

[5] بول ريكور، الزمان والسرد(التصوير في السرد القصصي)، ج2 ، تر: فلاح رحيم، مر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت-لبنان، ط1، 2006م، ص09 ص09

[6] المرجع نفسه، ص09- 10.

إلى هذا العلم تنبع من حال الغربة التي تنشأ بين العمل الأدبي وبين متلقيه بغرض فهم الحياة وفك لغز النص؛ لتقريب المناطق المجهولة فيهما، وفي هذه الحال تكون كل قراءة تأويلية محدودة بمحدودية صاحبها، بمعنى أن كل قراءة وحيدة مهما كانت جدية، أو مهما سمَتْ تعد قراءة منقوصة»[1].

5.أمبرتو إيكو وحدود التأويل:

أمّا **أمبرتو إيكو Umberto Eco (1932-2016م)**[2] فقد خالف جاك دريدا jacques Derrida في فلسفته التفكيكية[3] التي تقول بتمنّع النصوص الإبداعية عن القارئ المؤوّل؛ وهو ما ينجرّ عنه تشظي الدلالة النصّية ومن ثمّ لا نهائية التأويل؛ بل وتجاوز ذلك إلى « اعتبار التأويلات متناقضة يلغي بعضها بعضا ويهدم اللاحق السابق حتى يتشذر نسيجه التعبيري وأنّ النص لا يتحدث عن خارجه ولاعن نفسه وإنّما تحدثنا عنه تجربتنا في القراءة. والتأويلات المختلفة والمتعدّدة واللانهائية متعلقة بمؤهلات القارئ»[4]؛ فهو وحده الذي يملك القدرة على إضاءة خبايا النص حتى في تمنّعه على البوح عن نفسه، إلاّ أنّ « عدم تحديد ميكانيزمات القراءة سيجعل من القرّاء يعيشون حالة اختلال ذهني أو نوعا من مطاردة العفاريت في الظلام الدامس(...) وهو ما تشكل تفكيكية "دريدا" نموذجا له؛ أي صراع في التأويليات»[5]، ومردّ ذلك في تصور جاك دريدا أنّ «القارئ والنص ليسا في الحقيقة سوى حالة تناص لمجموعة من المرجعيات كلّ واحدة منها تحيلنا إلى توالد لا نهائي من الدلالة. والعلامة لم تعد شيئا تفيد معرفته معرفة شيئا آخر على الإطلاق، وإنّما هي تتشظى(...) إننّا نلمس هنا مدى التأثـــير "النيتشـوي"[6]، حيث يحدث القلق والاضطراب فينا وفي العالم من حولنا نتيجة الشكوك التي تخامرنا في قضية اللغة التي لحسن الحظ بدأ الناس يكتشفون خطأ اعتقادهم فيها. ولأنّنا لا نستطيع فعل شيء ما في هذا العالم، سنحوّل جهدنا إلى اللعب واللغة، وقـــد يتحول الأمر إلى نقيضه

---

[1] عفاف مودع، مقابلة مع عبد القادر فيدوح، بتاريخ : 2016/02/12 عبر البريد الالكتروني afidouh@hotmail.com

[2] **أمبرتو إيكو**: فيلسوف إيطالي، وروائي وباحث في القرون الوسطى، ويُعرف بروايته الشهير .اسم الوردة، من أعماله نذكر: مقبرة براغ، كيفية السفر مع سلمون، 6 نزهات في غابة السرد، حاشية على اسم الوردة، لا نهائية القوائم: من هوميروس حتى جويس، السميائية وفلسفة اللغة، العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، آليات الكتابة السردية، التأويل بين السميائيات والتفكيكية، جزيرة اليوم السابق، الأثر المفتوح، باودولينو، بندول فوكو، الشعلة الغامضة للملكة لوانة، الكتاب موجود في اللغة الفرنسية وعنوانه La Mystérieuse Flamme de la reine Loana.، العدد صفر.

[3] **الفلسفة التفكيكية**: « تعدّ فلسفة دريدا Jacques Derrida – ولد 1930م – النقدية الوجه الآخر للثورة على المنهج الوصفي البنيوي؛ فهي تفكيكية Déconstruction ثائرة على مكونات العقل الغربي: مركزيته وآليات تفكيره، فلم يعد للعقل أي سلطة في تحديد المعاني، كما أنّه ليس للنص مركزا–نواة– يمكن من خلاله تحديد المعاني، وغياب بؤرة النص يعني عدم القدرة على تحديد المعنى "الذري"، غير أنّه لا يفقد النص كل ما من شأنه أن يكون معنى»؛ ينظر: عمر مهيبل، من النسق إلى الذات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2001م، ص140–141 ؛ ومزي عبد القادر، الدلالة اللفظية والنحوية وحدود التأويل، ضمن المؤلَّف المشترك اللغة والمعنى (مقاربات في فلسفة اللغة)، الدار العربية ناشرون بيروت–لبنان؛ منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2010م، ص140

[4] قندسي عبد القادر، التأويل بين رهانات الفلسفة وإكراهات اللغة، ضمن المؤلَّف المشترك اللغة والمعنى(مقاربات في فلسفة اللغة)، ص120.

[5] مزي عبد القادر، الدلالة اللفظية والنحوية وحدود التأويل، 140

[6] نسبة إلى فريدريش نيتشه Friedrich Nietzche (1844–1900م)

فتتلاعب بنا اللغة أو تقول هي من خلالنا»[1]؛ فاستيعاب الطاقة الإيحائية للغة في انفتاحها اللامحدود من شأنه أن يوقع القارئ في مأزق دلالي، لما تعدّدت الرؤى النصيّة بتعدّد القراءة التأويلية المعتمدّة على هدم ما قيل وإعادة بنائه وفق رؤية لا تعرف اليقين بل تناشد ملامسة بعض جوانب الحقيقة التي يبقى إدراكها في الفلسفة التفكيكية أمرا مُتعذّرا بلوغه، وهو ما حاول أمبرتو إيكو تجاوزه ليضبط بذلك القراءة السليمة التي تنطلق من الإستراتجية النصية في إحالاتها الممكنة والمقرونة بسياق ثقافي يرسم ملامحها ويوجّه مسارها وفق « مقولات ثلاث تعدّ مفتاحا لتأويل الوقائع والانتشاء بأسرارها(...): الموسوعة L'encyclopédie و الافتراض الدلالي Topic و العوالم الممكنةLes mondes possibles »[2]؛ ذلك أنّ الوقائع النصيّة على اختلاف تمظهراتها محمّلة بأنساق ثقافية تضمر رؤية بعينها للوجود الإنساني سواء كانت هدفها نفعي تحقيق التواصل بين الأفراد، أو في إضمارها لأبعاد رمزية محمّلة بجملة من المخاوف، الطموحات، التحديات والأحلام المشتركة بين فئة اجتماعية بعينها التي استوجب التعبير عنها لغة مجازية لما يميّزها من غموض يعكس عمق تلك الرؤى وامتدادها عبر التاريخ الإنساني.

ومن هذا المنظور، تعدّ **الموسوعة** في تصوّر إيكو« مسلّمة سميائية أي فرضية إبستمولوجية يجب أن تستثير الاكتشافات والتمثلات الجزئية والمحليّة للكون الموسوعي»[3]؛ إنّها تمثل مجموع السنن المتعارف عليه اجتماعيا في احتوائه لجملة من الخبرات الثقافية المعبّر عنها بلغات مختلفة، لذلك لا يفرق إيكو بين « المعرفة اللسانية ومعرفة العالم. ففي الحالتين مما يتعلّق الأمر بمعرفة الثقافة يتم داخلها شرح كل واقعة استنادا إلى وقائع أخرى مودعة في الموسوعة ذاتها»[4]، وبذلك لا يكون« التوالد الدلالي عفويا، إنّه محكوم بقواعد ومضمرات وأعراف واستعمالات مخصوصة هي العناصر التداولية التي تفصل المبنيَ في النص عن المعطى الدلالي الخام»[5]؛ أو بلغة أخرى تفصل بين إحالات النص في اختزالها لأنساق ثقافية بعينها والدلالة المعجمية في صورتها الحرفية فالبحر « سيظل بحرا إلى الأبد، إنّه ماء وأسماك وطحالب(...)، ولكنّه يحيل على عوالم أخرى مصدرها الاستعمال الاستعاري داخل الموسوعة، إنّه المغامرات الكبرى والمعارك الحربية وتاريخ القراصنة، وهو العواصف والظلام وهو الأمواج، أو هو جزء من قصة تروي غرق الهاربين من الفقر والجوع والجهل. وتلك أيضا حالات المقولات المجرّدة من قبيل الصدق والكذب والخير والشر. فما يحدّد هذه القيم ليس مضمونا يمكن أن يتجسّد في وجود جوهري مطلق، بل أشكال حضورها في الفضاءات الثقافية المختلفة»[6]، والأمر سيان بالنسبة للقطار الذي يرتبط « في ذهني بجدّتي، فهذا أمر لا علاقة له بالمعارف العامة التي يتداولها الناس حول القطار. فللقطار ذاكرته الخاصة هي كل ما يمكن أن يحيل عليه السفر والمسافرون والشباك والتذكرة والقاطرة والمقصورة والمراقب(...)، أما إحالة القطار على جدّتي فهذا

[1] مزي عبد القادر، الدلالة اللفظية والنحوية وحدود التأويل، ص 141-142.

[2] سعيد بنكراد، بين اللفظ والصورة (تعددية الحقائق وفرجة الممكن)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب؛ بيروت-لبنان، ط1، 2017م، ص 17.

[3] أمبرتو إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، تر: سعيد بنكراد، مر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان؛ الدار البيضاء- المغرب ط2، 2010م ص164.

[4] المرجع نفسه، ص 164

[5] سعيد بنكراد، بين اللفظ والصورة، ص18

[6] المرجع السابق، ص20

أمر لا يشكّل سوى جزء من ذكرياتي أنا يوم ركبت القطار لأوّل مرّة برفقتها»[1]، وفي هذه الحالة يتدخلّ القارئ في بناء الدلالة النصّية انطلاقا من رؤية خاصة تشكّل جزءا من الموسوعة في كليتها« ومن هذه الزاوية بالذات تتحدّد هوية النص وتُرسم آفاق قراءاته أيضا إنّه يُبنى وفق انتقاءات سياقية تصوغ وقائع جديدة استنادا إلى ممكنات الموسوعة وفي انفصال عنها في الوقت ذاته. ذلك أنّ النص لا يكتفي بالتصرّف في الكم المضموني المتداول، بل يرسم حدودا للخطاب ويمنح التّدلال حجما يقود في حالات كثيرة إلى توليد معاني جديدة أو قيم سلوكية يمكن أن تشكل مضافا تلتقطه ذاكرة الناس»[2]، وهو ما يقودنا إلى المقولة الثانية: "**الافتراض التأويلي**" الذي يتيح للقارئ فرصة المشاركة في عملية الخلق الإبداعي إذ لا تمام للدلالة النصيّة إلاّ بمشاركته التي تعكس أولاً انفتاحها وثانيا التوافق والانسجام بين عالمي النص والقارئ الذي تزيد معرفته بنفسه بعد فهم ما أضمرته تلك النصوص في صورتها المتحقّقة، « وهي طريقة أخرى للقول، إنّ الانفتاح الدلالي في التلقي وفي النص، لا في التلقي وحده، كما تصوره التفكيكيون. فالتأويل لا يعني التخلّص من عبء النص بردّه إلى حالات تشظيه الأولى، جزئية ضالة داخل موسوعة بلا ضفاف ولا تخوم، بل يؤسس لحالة انسجام جديدة قد تكون عَرضية، بحكم تعدّد القراءات وتنوعـــها ولكنّها تبقي على النص حيّا مصدرا لتأويلات لاحقة»[3]، فالافتراضات التأويلية تنطلق من النص الذي يحدّد وجهتها ويرسم مسارها وفق ما يتناسب مع الاستراتيجية النصية في إيحاءاتها المشفّرة لغويّا، لتؤسّس بذلك للتأويلات اللاحقة دون أن تناقض ما سبقها (من تأويلات)، وهو ما يميّز كذلك بين الافتراض التأويلي Topic لدى إيكو ومقولة التناظر isotopie لدى غريماس إذ« يعدّ الافتراض التأويلي سؤالا مصدره القارئ، وهو السبيل إلى المعنى، أما التناظر فكمّ دلالي بؤرته النص. فليس هناك رابط مباشر بين النص ومرجعياته»[4]؛ وهذا معناه أنّ أنّ الافتراض التأويلي مُنتج نصّي أما التناظر في تصوّر غريماس فهو مُستخرج نصي، الأول يحتكم إلى البعد التداولي بحكم تحاور القارئ النموذجي مع النص أمّا الثاني فيكتفي بالبعد الدلالي للوحدات المعبّر بها؛ أمّا مقولة "**العوالم الممكنة**" فهي حسب إيكو:« حالة أشياء معبّر عنها من خلال مجموعة من القضايا حيث تكون كلّ قضية إمّا +ب أو – ب. وبذلك، فإنّ هذا العالم يتشكل من مجموعة من الكيانات المحدّدة من خلال خصائص. وبما أنّ بعض هذه الخصائص يحيل على أفعال، فإنّ العالم الممكن قد يكون مجرى للأحداث. وبما أنّ مجرى الأحداث هذا ليس فعليا، ولكنه ممكن، فإنّ ما يتحكم فيه هو المواقف القضوية للشخص الذي يثبته أو يعتقده أو يحلم به أو يرغب فيه أو يتوقعه»[5].

إنّ العوالم الممكنة وإن لم تماثل العالم الواقعي في كثير من جوانبها المتخيّلة فإنّها تضمر في طياتها رؤية فكرية مؤّسسة للبنية الذهنية لدى جماعة اجتماعية بعينها؛ بما تشملّه من معتقد ديني، إيديولوجيا فلسفة (...) وهذا ما يخلق سياقاتها الثقافية ومن ثمّ

[1] أمبرتو إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، ص 164

[2] سعيد بنكراد، اللفظ والصورة، ص 19

[3] المرجع نفسه، ص 26

[4] المرجع نفسه، ص 27

[5] سعيد بنكراد، اللفظ والصورة ، ص 29.

التأويلات المشروعة نصيّاً[1]. ويمكننا أن نختزل رؤية أمبرتو إيكو في قراءة النصوص الإبداعية من خلال تعريفه للتأويل في كونه: «تفاعل مع نص العالم، أو تفاعل مع عالم النص عبر إنتاج نصوص أخرى»[2]، وفي ذلك دعوة إلى التحاور مع النصوص وفق قراءة تتجاوز الظاهر النصي نحو باطنه المضمر الذي يختزل رؤية وجودية للإنسان في علاقته بالآخر ومن ثمّ بالعالم الذي يحتويه و يتأثّث من خلال وعيه به « وهذا يعني أنّ العالم (الوجود) هو علامة قابلة للتأويل، وهذه الفلسفة ترجع بنا إلى توماس الإكويني[3] وكبار الوجوديين من بعده[4]، الذين اعتبروا العالم (الكون) نصا كبيرا والوجود الإنسانيّ معلما من معالمه، بل يعتبر الإنسان مركزا للكون ومن خلاله فقط يكون للأشياء معنى في هذا العالم وبدونه يستحيل العالم والوجود إلى عدم، فالكون لا يحصل له الوجود إلاّ من خلالنا نحـــن أي من خلال ما نعطيه له من معنى»[5]؛ وبذلك يكون إيكو قد نظرّ لتأويلية تتجاوز أحادية الرؤية في سبيل خلق إبداعيّ متجدّد في انتمائه لسلسلة من القراءات المتناسقة، تُلامس في مجملها كينونة الإنسان في انتمائه إلى كيان وجودي أوسع وهو ما يضعنا أمام عتبة نظرية التلقي وجمالية الاستقبال لدى كلّ من ياوس وآيزر في تأسيسهما لنظرية محورُها الأساس القارئ ودوره الرئيس في العملية الإبداعية (...يتبع)

6.خاتمة:

رامت هذه الدراسة التتبعيّة التطوريّة البحث في ماهية بعض المصطلحات المفاهيم المشيّدة للصرح السيميائي ذات الرهان التأويلي، لما عُدّت الحقائق الإنسانية وفق تجلياّتها السُلوكية والفنيّة المختلفة سلوكات تضمر أنساقا ثقافيّة مُحكمة، وليدة تسنين جمعي متعارف عليه اجتماعيا، وهو ما دفعّ ببورس أن يفتح آفاق العلامة موضوع علم السيمياء لتشمل كافة السلوكات الإنسانية المتحقّقة ألسنيا أو المتحقّقة خارج قوانين اللغة الخطيّة لتشمل الإيماءات، حركات الرقص الموسيقى، فكلّ سلوك من هذه السلوكات يعدّ لغة يحكمها منطقا عرفيا مُحمّلا بأبعاد دلاليّة بعينها، ويعدّ السيميوز/السيميوزيس في تصوّره: الصيرورة التي تشتغل من خلالها العلامة في تضمينها لدلالة بعينها، وفق رؤية ثلاثية الأقطاب؛ الممثل/الماثول représentamen في إحالته على الموضوع objet بوجود المؤولinterprétant، الذي يلعب دور الوساطة بين القطبين الأولين (الممثل والموضوع)؛ فهو الذي

---

[1] وقد فصّل سعيد بنكراد القول في العوالم الممكنة والمخيال الثقافي في مقال له عنونه بـ: « النار في المتخيّل بين القدسي والاستيهام الجنسي»، الصادر عن مجلّة علامات العدد 49.

[2] أمبرتو إيكو، التأويل بين السميائيات والتفكيكية، تر وتقديم: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط2، 2004م، ص117.

[3] **توما الإكويني** Thomas D'Aquin : أكبر فلاسفة العصور الوسطى المسيحية، ولا يزال تأثيره عظيما في الكنيسة الكاثوليكية وفي الفكر المسيحي عامة، ولد توما الأكويني في سنة 1225م بقصر روكاسكا Roccasecca بالقرب من آكوين...وكانت وفاته في 7مارس 1274م ...فلسفة توما مستمدة كلها من فلسفة أرسطو كما هي في مؤلفاته الأصلية، وكما شرحه شرّاحه خصوصا ابن سينا، مع تعديله بما يتلاءم مع العقائد المسيحية الأساسية، وقد ذكر عبد الرحمن بدوي في موسوعته العديد من أعماله التي توزّعت بين: شروح، وكتب تنظيمية، ورسائل مفردة، ومواعظ...ينظر، عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج1، الصفحات (426–432).

[4] ولقد سبقت الإشارة إلى هيدغر، غادامير، بول ريكور (...)، ويمكننا أن نضيف جان جاك روسو حينما اعتبر أنّ: الآخر ليس شرطا لوجودنا فقط، بل هو شرط للمعرفة التي نكونها عن أنفسنا»

[5] مزي عبد القادر، الدلالة اللفظية والنحوية وحدود التأويل، ص135.

يمنح كلا منهما بعدا دلاليا مُحدّد المعالم، محكوما بتسنين ثقافي يلعب القارئ فيه دورا مهما في فك شفرات الرسالة المرسلة المتضمّنة في العلامة السيميائية، إتماما للعمليّة التواصليّة وبلوغا للفهم. ولم تبتعد رؤية موريس عن هذا التوجه الفكري للعلامة في أبعادها الثلاثة (البعد الدلالي، التركيبي والتداولي). في حين تقاطعت رؤية رولان بارت للعلامة مع ما قال به فرديناند دي سوسير الألسني/ اللغوي حينما أقرّ بسلطة العلامة اللغوية في تأدية المعنى المراد، فكل علامة في تصوّره لابد لها أن تتوسّل اللغة الخطيّة لتُعبّر عن ذاتها وتُبلغ رسالتها التواصليّة، كما يلعب السياق الاجتماعي دورا مهمّا في بلوغ مقصديّة الخطاب اللغوي. في حين يؤُكّد مارتن هيدغر مقولة انصهار الآفاق، أفق النص بما يُضمره من تحولات وجوديّة مشفّرة لغويا، وأفق القارئ الذي يتعامل مع النص ضمن صيرورة تاريخية يؤثر السابق فيها في اللاحق، وهو ما ركّز عليه بول ريكور؛ حينما أعلى من مركزيّة الذات المؤولة في فهم الآخر/ العالم الذي يكتسب معناه من خلال وعينا به، كونها في تصوّره مصدر المعرفة، وما النص الإبداعي إلاّ آخر يضمر في ثناياه الذات في رحلة بحثها عن ذاتيتها، وبذلك يزيدها معرفة بجوهرية وجودها داخل الكون على اتساعه، وذلك بعد تملّكه لفراسة فك الترميز اللغوي الذي يستمدّ كيانه من أنساق ثقافيّة بعينها. ويعتبر أمبرتو إيكو أن الإستراتجيّة النصيّة بإيحاءاتها الثقافيّة كفيلة بتوجيه القارئ النموذجي، في سياق حديثه عن التأويل المشروع، مُخالفا بذلك لجاك دريدا الذي أقرّ بتشظي الدلالة النصيّة ولانهائيتها.

ووفق هذه التصورات النظرية؛ التي رامَ من خلالها أصحابها مُساءلة الوقائع المختزلة في تجليات فنيّة بعينها بغية مُلامسة الحقيقة خلصنا إلى نتيجتين محوريتين، اتفقنا فيهما مع ما ذهب إليه **عبد الكريم شرفي** في خاتمة مؤلّفه الموسوم بـ: «**من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة**» أولهما: عجز التصورات النظرية، المختزلة في منظومة مَفاهمية محدّدة، في فرادتها الإجابة على الإشكالات والمسَاءلات التي تطرحها النصوص الإبداعية ومن ثمّة الأدبية، وهو ما يحكُم بضيقها وجزئيتها، إذا ما قورنت بانفتاح النصوص الإبداعية المتحررة من سلطة الزمان والمكان؛ وهو ما تؤكّده الأعمال الفنية الخالدة من ناحية، وتعدّد النظريات التي تروم احتواءها من ناحية أخرى. ثانيهما: ضرورة الوعي بالخلفية الإبستمولوجية والإيديولوجيّة التي ولدت النظريات الفلسفية من رحمها، ومن ثمّة الوعي بتاريخيتها وسياقها الثقافي والأهداف التي ترمي إليها، لأنّها تحمل في طيّاتها ملامح فاعليتها على الصعيد الإجرائي وتحمل في الوقت نفسه داوفع تجاوزها، وهو ما يَدفعنا إلى تعزيز ثقافة السؤال، دون الانتصار لنظرية على حساب نظرية الأخرى؛ ذلك أنّ كل نظرية تعدّ لبنة من اللبنات المؤسّسة للمعرفة الإنسانية في شموليتها.

7.قائمة المراجع:

(1) المؤلفات:

1.1 المؤلفات باللغة العربية:

1. حامد أبو زيد، إشكالية التلقي والتأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان؛ الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2014م

2.حسام الدين درويش، إشكالية المنهج في هيرمينوطيقا بول ريكور وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية (نحو تأسيس هيرمينوطيقا للحوار)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ،الدوحة–قطر، ط1، 2016م
3.حسن بن الحسن، النظرية التأويلية عند ريكور، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش- المغرب، ط1، 1992م
4. سعيد بنكراد، السميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، منشورات الزمن، الرباط- المغرب، (د.ط)، 2003م
5. سعيد بنكراد، السميائيات والتأويل (مدخل لسميائيات ش. س. بورس)، المركز الثقافي العربي ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء- المغرب ط1، 2005م
6. سعيد بنكراد، بين اللفظ والصورة (تعددية الحقائق وفرجة الممكن)، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء- المغرب؛ بيروت- لبنان، ط1، 2017م
7.طائع الحداوي، سيميائيات التأويل الإنتاج ومنطق الدلائل، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء- المغرب؛ بيروت- لبنان، ط1، 2006م.
8.عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة (دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة)، الدار العربية ناشرون بيروت- لبنان؛ منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة - الجزائر، ط1، 2007م
9.عبد اللطيف محفوظ آليات إنتاج النص (نحو تصوّر سيميائي)، الناية للدراسات والنشر والتوزيع، سورية- دمشق، ط1، 2014م
10. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت–لبنان، ط1 1984م
11. عمر مهيبل، من النسق إلى الذات، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة- الجزائر، ط1، 2001م.
12.قندسي عبد القادر، التأويل بين رهانات الفلسفة وإكراهات اللغة، ضمن مؤلّف مشترك اللغة والمعنى (مقاربات في فلسفة اللغة)الدار العربية للعلوم ناشرون ،مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت– لبنان، ط1، 2010م.
13.مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2009م
14.موسى سامح ربابعة، آليات التأويل السيميائي، دار جرير للنشر والتوزيع ، عمان- الأردن، ط2، 2016م.
15.ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء- المغرب، ط5، 2007م.
16. يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنقل والتوزيع، المحمدية - الجزائر، ط1، 2007م.

2.1 المؤلفات المترجمة:

17 أمبرتو إيكو، العلامة تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنكراد، مر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان؛ الدار البيضاء- المغرب ط2، 2010م.

18. أمبرتو إيكو، التأويل بين السميائيات والتفكيكية، (تر وتقديم: سعيد بنكراد)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط2، 2004م.
19. بول ريكور، صراع التأويلات دراسات هيرمينوطقية (تر: منذر عياشي)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت– لبنان، ط1، 2005م
20.بول ريكور، الزمان والسرد (التصوير في السرد القصصي)، ج2، تر: فلاح رحيم، جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة بيروت- لبنان، ط1، 2006م.
21.تشالز موريس، روّاد الفلسفة البراجماتية (تر وتعليق: إبراهيم مصطفى إبراهيم)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية– جمهورية مصر العربية، (د.ط) 2011م.
22. هانز جورج غادامير، فلسفة التأويل(لأصول. المبادئ. الأهداف)، تر: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة- الجزائر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، الدار العربية للعلوم، بيروت- لبنان ، 2006م.
23.هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج الخطوط الأساسية للتأويلية، (تر: حسن ناظم وعلي حاكم صالح)، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع طرابلس– الجماهيرية العظمى، ط1، 2017م

3.1 المؤلفات باللغة الأجنبية:

24. Anne Maurel, la critique, Hachette Éducation, 2014

25. Charles s .Peirce, écrits sur le signe, traduit par Gérard Deledalle, seuil, 1978.

26. Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, Editions Payot, paris VIe, 1972

(2) المقالات:

27. Odile Riondet, Paul Ricœur : le texte, le récit et l'histoire, paris, t.53, N°2,2008.

(3) مقابلة:

28. عفاف مودع، مقابلة مع عبد القادر فيدوح، بتاريخ: 2016/02/12م، عبر البريد الالكتروني: afidouh@hotmail.com

(4) مواقع الأنترنيت:

29. Jean Fisette, Sémiosis / Sémiosis, ww.w.jeanfisette.net, consulté le (25/01/2021)

30. https://ar.wikipedia.org, consulté le (06 et 10 /12/2021).

31. https://www.babelio.com, consulté le (06/12/2021).